

الجوار الإسلامي المسيحي: التجربة التونسية المعاصرة نموذجاً

د. جمعة شيخة

نوقشت في كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة يوم 9 أكتوبر 2007 رسالة ماجستير متميزة من حيث الاختصاص الذي تدرج فيه ومن حيث طبيعة الموضوع الذي تمت معالجته، واستطاع الباحث علي بن مبارك صاحب الرسالة أن يقدم مادة علمية قيمة تتعلق بالحوار الإسلامي المسيحي من خلال بعض التجارب التونسية المعاصرة. ولقد أشرف على تأطير هذا العمل الأستاذ الدكتور محمد الحداد وناقشه كل من الأستاذين محمد الطاهر المنصوري رئيساً وعبد الرزاق الحمّامي مقررًا.

هذا البحث يندرج ضمن مشغل أعمّ يتعلق بالدراسات المقارنة للأديان والحضارات، وهذا الضرب من الدراسات تمّ بعثه بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة منذ ثلاث سنوات في مستوى شهادة الماجستير ويشرف عليه الأستاذ محمد الحداد. وتهدف هذه الدراسات المقارنة إلى تكوين باحثين قادرين على دراسة الظواهر الدينية والحضارية دراسة علمية تقوم على المقارنات.

ويبدو أنّ رسالة الباحث علي بن مبارك المنعقدة حول " الحوار الإسلامي المسيحي : التجربة التونسية المعاصرة نموذجاً" هدفت أساساً إلى التعريف بتجارب تونسية رائدة في مجال الحوار بين الأديان بصفة عامة وبين المسيحية والإسلام بصفة خاصّة، كما عرّف هذا العمل بأهمّ الدراسات النقدية التونسية التي تناولت هذا الحوار وألفت فيه كتباً أو مقالات، وكأنا بصاحب هذا العمل أراود أن يؤسّس لذاكرة تونسية في مجال الحوار الإسلامي المسيحي قلّما ذكرها الباحثون المهتمّون بهذا النوع من الحوار على المستويين العربي والإسلامي رغم كثرتهم. ويمكن لهذا

العمل أن يكون مرجعا في مجال الحوار الإسلامي المسيحي من خلال التجارب التونسية. ولعله يكون بادرة لأعمال أخرى قد تواصل المسيرة في إطار مشروع معرفي صارم يهتم بالأديان والعلاقات بينها.

ولئن اعتمد الباحث مناهج التصنيف والتوثيق تأسيسا لذاكرة وطنية وتخليدا لمجهودات تونسيين اقتحموا الحوار وشاركوا في فعالياته، فإنه تعامل مع مدونة بحثه تعاملًا تحليليًا نقديًا أراد من خلاله أن يقف عند خصوصيات هذه التجربة وخلفياتها الفكرية والسياسية والثقافية. ولذلك تميّز هذا العمل بمنزعه نقديّ صاحب كلّ أبواب البحث وشمل المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء.

ونظرا إلى تعدّد تجارب الحوار الإسلامي المسيحي بتونس وارتباطها بمحاولات فردية وجماعية، رسمية وأهلية، علمية واجتماعية، فإنّ الباحث اختار أن يشتغل على مدونة مضبوطة وقع اختيارها بدقة حتى تحقق الأهداف المرجوة من البحث. وتشمل مدونة البحث ثلاث تجارب مختلفة من حيث طبيعتها وأهدافها والمرحلة الزمنية التي تمثّلها كلّ واحدة منها: التجربة الأولى تتعلّق بملتقيات تونس للحوار الإسلامي المسيحي وهي خمسة ملتقيات نظّمها مركز الدراسات الاجتماعية والاقتصادية بتونس وتناولت مجموعة من القضايا المتنوّعة غلّى امتداد أكثر من عقد ونصف من الزمن (1974-1991). أمّا التجربة الثانية فهي أعمال فريق البحث الإسلامي المسيحي (GRIC) الذي تأسّس سنة 1977 ومازال يواصل عمله إلى الآن وأصدر خلال هذه الفترة من النشاط البحثي والحواري خمسة كتب تتناول قضايا مختلفة من قبيل الوحي والعدل والعلمانية والخطيئة والحوار بين المسلمين والمسيحيين. وبالإضافة إلى التجريبتين التونسيّتين السابقتين فإنّ التجربة الثالثة ارتبطت بندوة جامعة الزيتونة "مستقبل الحوار بين الأديان" التي عقدت سنة 2003 وتندرج ضمن مجموعة من الأنشطة تقوم بها هذه الجامعة.

ولقد قسّم الباحث عمله إلى أربعة أبواب كبرى متقاربة من حيث الحجم استهلّ كلّ باب منها بمقدمة وتوجّه بخاتمة، ثمّ قسّم كلّ باب إلى مجموعة فصول وكلّ فصل إلى مباحث وكلّ مبحث إلى عناصر.

ولقد مهد المهّد الباحث-علي بن مبارك في الباب الأول للمسألة تاريخيا ومفهوميّا فتحدّث في الفصل الأوّل عن دلالات عنوان البحث " الحوار الإسلامي المسيحي: التجربة التونسية نموذجا"، وتساءل في هذا الإطار إن كان الحوار واحدا أم متعدّدا؟ وهل يخصّ مجموعات معيّنة من المسلمين والمسيحيين أو تراه يشمل كلّ مؤمني الديانتين؟ ثمّ تناول في فصل ثانٍ أهمّ تجارب الحوار الإسلامي المسيحي مستعينا في ذلك بجداول حاول من خلاله ذكر أهمّ تجارب الحوار الإسلامي المسيحي وطنيا وعربيا وإسلاميا وكذلك عالميا. ولقد ارتأى الباحث أن يعرّج في الفصلين الثالث والرابع من هذا الباب على موقف كلّ من الإسلام والمسيحية من الحوار.

وبعد الانتهاء من الباب الأول حاول الباحث أن يعرض في الباب الثاني تجارب الحوار الإسلامي المسيحي التي نظر فيها، فعرّف بالجهات المنظمة لملتقيات الحوار وبخصوصية كلّ تجربة وبطبيعة المشاركين وثقافتهم. وحتى يوفّق الباحث في هذا التقديم اتّصل بشخصيات مهمّة كان لها دور رياديّ في تفعيل التجارب الحوارية التي تناولها بالبحث والدراسة وأجرى معها حوارات مفيدة وجّهت العمل وأفادته.

ويبدو أنّ الباب الثالث كان أهمّ الأبواب لأنّه اهتمّ بـ"قضايا الحوار الإسلامي المسيحي"، وهذا تطلّب منه جهدا تفكيكيا حفرنا كبيرا نظرا إلى كثرة المداخلات وهيمنة اللغة الفرنسية عليها. ولقد حصر الباحث هذه القضايا في خمسة مداخل في شكل فصول تعلّق الأوّل منها بالحوار في حدّ ذاته ومن خلاله تطرّق إلى إشكاليات تتعلّق بماهية الحوار ودلالاته وأهدافه وشروطه ومحفّزاته. ثمّ تناول في الفصل الثاني قضايا الوحي والكتاب من منظور الديانتين. أمّا الفصل الثالث فتطرّق فيه إلى مسألة أهمية الدين في العصر الحديث، وتناول فيه قضايا تتعلّق بحاجة الإنسان المعاصر إلى الدين، وعلاقة النص بالتاريخ، وظاهرة العنف الديني وحركات الإسلام السياسي...

الفصل الرابع من الباب الثالث اهتمّ فيه بقضية التوحيد وتطرّق من خلالها الباحث إلى علاقة التوحيد بالتثليث ومسألة وحدة الأديان. وبالإضافة إلى القضايا

التي ذكرت تناول صاحب العمل في الفصل الخامس " قضايا التنمية والإنسان المعاصر" من قبيل: التزايد السكاني، والتكنولوجيا، وحقوق الإنسان، والعولمة. والطريف أنّ الباحث علي بن مبارك جمع في الباب الرابع من بحثه بين لحظتين من الصعب الجمع بينهما: لحظة الماضي بنقائضه وعوائقه ولحظة المستقبل بما هي طوق للمنشود وتجاوزاً للموجود فتحدّث فيه عن "صعوبات الحوار وآفقه " فقسّم الصعوبات إلى أنواع بحسب خلفياتها المعرفية والثقافية والتاريخية والتنظيمية، ثم أثار إشكالية آفاق الحوار من خلال مجموعة من المداخل تتعلّق بنسبية الحقيقة الدينية ومناهج دراسة الظواهر الدينية وعلاقة الحوار بثقافة الحوار: وعيا وسلوكا.

لم يفت صاحب هذا البحث : " الحوار الإسلامي المسيحي : التجربة التونسية المعاصرة نموذجاً " التّنبية إلى أهمّ مشاغل الحوار بين المنظومتين الدينتين، ويمكن للقارئ أن يستفيد من هذا العمل الذي توجّ بمجموعة من الفهارس المساعدة تتعلّق بالأعلام والأماكن وآيات القرآن ونصوص الكتاب المقدّس. ومنتظر من الباحث أن يذلل بعض الصعوبات وأن يتدارك مجموعة من النقائص تتعلّق بمحتويات البحث ومناهج تقديمها حتّى إن تيسّر نشره استفاد منه القارئ كلّ الاستفادة ./.